

الناس ضحى ﴿³﴾ وقيل: أريد بالضحى النهار بيانه قوله: أن يأتيهم بأسنا ضحى في مقابلة بيئاتنا.

وَأَلَّيْلٌ إِذَا سَجَى ﴿٦﴾

﴿سجى﴾ سكن وركد ظلما، وقيل: ليلة ساجية، ساكنة الريح، وقيل: معناه سكنون الناس والأصوات فيه. وسجا البحر سكنت أمواجه، وطرف ساج ساكن فاتر.

مَا وَدَعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴿٧﴾

﴿ما ودعك﴾ جواب القسم ومعناه: ما قطعك قطع المودع. وقرئ: بالتخفيف يعني: ما تركك. قال:

ثم ودعنا آل عمرو وعامر فرانس أطراف المثقفة السمر والتوبيخ: مبالغة في الودع لأن من ودعك مفارقا فقد بالغ في تركك. روي أن الوحي قد تأخر عن رسول الله ﷺ أياما فقال المشركون: إن محمدا ودعه ربه وقلاه⁽⁴⁾. وقيل: إن أم جميل امرأة أبي لهب قالت له: يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك فنزلت⁽⁵⁾. حذف الضمير من قلى كحذفه من الذكارات في قوله: والذكارين الله كثيرا. والذكارات يريد والذكارات ونحوه. فأوى هدى فأغنى وهو اختصار لفظي لظهور المحذوف.

وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴿٨﴾

فإن قلنت: كيف اتصل قوله: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ بما قبله؟ قلنت: لما كان في ضمن نفي التوديع والقلى أن الله موصلك بالوحي إليك⁽⁶⁾، وأنت حبيب الله ولا ترى كرامة أعظم من ذلك ولا نعمة أجل منه، أخبره إن حاله في الآخرة أعظم من ذلك وأجل، وهو السبق والتقدم على جميع أنبياء الله ورسله وشهادة أمته على سائر الأمم ورفع درجات المؤمنين وإعلاء مراتبهم بشفاعته وغير ذلك من الكرامات السننية.

وَأَسْرَفَ يَرْسَنَ ﴿٩﴾

﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ موعده شامل ولما أعطاه في الدنيا من الفلج والظفر بأعدائه يوم بدر ويوم فتح مكة وبخول الناس في الدين أفرأجا. والغلبة على قريظة والنضير وأجلاتهم وبث عساكره وسراياه في بلاد العرب وما فتح على خلفائه الراشدين في أقطار الأرض من المدائن وهدم بآيديهم من ممالك الجبابرة وأنهبهم من كنوز الأكاسرة، وما قذف في قلوب أهل الشرق والغرب من الرعب وتهيب الإسلام وفشوق الدعوة واستيلاء المسلمين، ولما ادخر له من الثواب الذي لا يعلم كنهه إلا الله. قال ابن

وقيل: الأتقى وجعل مختصا بالنجاة كان الجنة لم تخلق إلا له. وقيل: هما أبو جهل، أو أمية بن خلف، وأبو بكر رضي الله عنه.

الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿١٠﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْرَى ﴿١١﴾

﴿يتزكى﴾ من الزكاة أي: يطلب أن يكون عند الله زاكيا لا يريد به رياء ولا سمعة أو يتفعل من الزكاة.

فإن قلنت: ما محل يتزكى؟ قلنت: هو على وجهين إن جعلته بدلًا من يؤتى فلا محل له لأنه داخل في حكم الصلاة، والصلاة لا محل لها، وإن جعلته حالًا من الضمير في يؤتى فمحله النصب.

إِلَّا آيْمَانًا وَبِهِ رُؤُوسُ الْأَعْمَى ﴿١٢﴾

﴿ابتغاء وجه ربه﴾ مستثنى من غير جنسه، وهو النعمة أي: ما لأحد عنده نعمة إلا ابتغاء وجه ربه. كقولك: ما في الدار أحد إلا حمرا. وقرأ يحيى بن وثاب: إلا ابتغاء وجه ربه بالرفع، على لغة من يقول: ما في الدار أحد إلا حمرا. وأنشد في اللغتين قول بشر بن أبي حازم:

أضحت خلاة قفارا لا أنيس بها إلا الجائر⁽¹⁾ والظلمان تختلف

وقول القائل:

وبلدة ليس بها أنيس إلا اليعاقير وإلا العيس

ويجوز أن يكون ابتغا وجه ربه مفعولا له على المعنى، لأن معنى الكلام: لا يؤتى ماله إلا ابتغاء وجه ربه لا لمكافأة نعمة.

وَأَسْرَفَ يَرْسَنَ ﴿١٣﴾

﴿ولسوف يرضى﴾ موعده بالثواب الذي يرضيه ويقر عينه. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الليل أعطاه الله حتى يرضى، وعافاه من العسر ويسر له اليسر»⁽²⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الضحى مكية

وَأَضْحَى ﴿١٤﴾

المراد بالضحى: وقت الضحى وهو صدر النهار حتى ترتفع الشمس وتلقى شعاعها. وقيل: إنما خص وقت الضحى بالقسم لأنها الساعة التي كلم فيها موسى عليه السلام وألقي فيها السحرة سجدا، لقوله: ﴿وإن يحشر

(1) الجائر: ولد العقرة الوحشية.

(2) نكره الثعلبي والواحدى وابن مردويه في تفسيرهم الزيلعي 4/224.

(3) سورة طه، الآية: 59.

(4) نكره ابن مردويه في تفسيره، الزيلعي 4/228.

(5) رواه البخاري في كتاب: التفسير سورة الضحى باب: ﴿ما ودعك ربك وما قلى﴾ (الحديث رقم: 4950) ومسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين (الحديث رقم: 115 - 1797).

(6) قال أحمد: وإخراج أهل الكباثر من النار بشفاعته مضاف إلى ذلك.

بالصانع. ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء وكفى بالنبي نقيصة عند الكفار أن يسبق له كفر.

وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴿٥﴾

﴿عائلاً﴾ فقيراً. وقرئ: عيلاً. كما قرئ: سيحات وعديماً، ﴿فأغنى﴾ فأغناك بمال خنيجة، أو بما أفاء عليك من الغنائم. قال عليه السلام: جعل رزقي تحت ظل رمحي⁽²⁾. وقيل: قنعت وأغنى قلبك.

فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَهْزَأْ ﴿٦﴾

﴿فلا تهزأ﴾ فلا تغلبه على ماله وحقه لضعفه. وفي قراءة ابن مسعود: فلا تكهر، وهو أن يعبس في وجهه، وفلان نو كهرورة عابس الوجه. ومنه الحديث: فبأي وأمي هو ما كهرنى النهر⁽³⁾، والنهم الزجر عن النبي ﷺ. «إذا رددت السائل ثلاثاً فلم يرجع فلا عليك أن تزيره».

وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿٧﴾

وقيل: إما أنه ليس بالسائل المستجدي، ولكن طالب العلم إذا جاء فلا تنهره. التحديث بنعمة الله شكرها وإشاعتها يريد ما نكره من نعمة الإيواء والهداية والإغناء، وما عدا ذلك. وعن مجاهد: بالقرآن فحدث، أقرئه وبلغ ما أرسلت به. وعن عبد الله بن غالب أنه كان إذا أصبح يقول: رزقتني الله البارحة خيراً قرأت كذا وصليت كذا. فإذا قيل له: يا أبا فراس مثلك يقول مثل هذا. قال: يقول الله تعالى:

وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿٨﴾

﴿وإما بنعمة ربك فحدث﴾ وأنتم تقولون: لا تحدث بنعمة الله. وإنما يجوز مثل هذا إذا قصد به اللطف وأن يقتدي به غيره. وأمن على نفسه الفتنة والستر أفضل ولو لم يكن فيه إلا التشبه بأهل الرياء والسمة لكفى به. وفي قراءة علي رضي الله عنه: فخير. والمعنى: أنك كنت يتيماً وضالاً وعائلاً فأواك الله وهداك وأغناك فمهما يكن من شيء وعلى ما خليت فلا تنس نعمة الله عليك في هذه الثلاث، واقتد بالله فتعطف على اليتيم وأوه فقد نقت البيت. وهو أنه ورأيت كيف فعل الله بك وترحم على السائل وتفقدته بمعروفك ولا تزجره عن بابك كما رحمك ربك فأغناك بعد الفقر، وحدث بنعمة الله كلها. ويدخل تحته هدايته الضلال وتعليمه الشرائع والقرآن مقتدياً بالله في أن هداه من الضلال. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة والضحى جعله الله فيمن يرضى لمحمد أن يشفع له، وعشر حسنات يكتبها الله له بعدد كل يتيم وسائل»⁽⁴⁾.

عباس رضي الله عنهما: له في الجنة ألف قصر من لؤلؤ أبيض ترابه المسك.

فإن قلت: ما هذه اللام الداخلة على سوف؟ قلت: هي لام الابتداء المؤكدة لمضمون الجملة، والمبتدأ محذوف تقديره: ولأنت سوف يعطيك، كما نكرنا في لا قسم أن المعنى: لانا أقسم، وذلك أنها لا تخلو من أن تكون لام قسم أو ابتداء. فلام القسم لا تدخل على المضارع إلا مع نون التأكيد فيقي أن تكون لام ابتداء، ولام الابتداء لا تدخل إلا على الجملة من المبتدأ والخبر فلا بد من تقدير مبتدأ وخبر وإن يكون أصله: ولأنت سوف يعطيك.

فإن قلت: ما معنى الجمع بين حرفي التوكيد والتأخير؟ قلت: معناه أن العطاء كائن لا محالة وإن تأخر لما في التأخير من المصلحة. عند عليه نعمه وأيايه وأنه لم يخله منها من أول تربيته وابتداء نشئه ترشيحاً لما أراد به ليقبس المترقب من فضل الله على ما سلف منه لثلاث يتوقع إلا الحسنى وزيادة الخير والكرامة ولا يضيق صدره ولا يقل صبره

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴿٦﴾

و﴿الم يجدك﴾ من الوجود الذي بمعنى العلم والمنصوبان مفعولاً وجداً، والمعنى: ألم تكن يتيماً، وذلك أن أباه مات وهو جنين قد أتت عليه ستة أشهر، وماتت أمه وهو ابن ثمان سنين. فكفله عمه أبو طالب وعطفه الله عليه فأحسن تربيته⁽¹⁾. ومن بدع التفسير أنه من قولهم: نرة يتيمة. وأن المعنى: ألم يجدك واحداً في قريش عديم النظر فأواك وقرئ: فأوى، وهو على معنيين: إما من أواه بمعنى: أواه. سمع بعض الرعاة يقول: أين أوى هذه الموقسة؟ وإما من أوى له إذا رحمه.

وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴿٧﴾

﴿ضالاً﴾ معناه: الضلال عن علم الشرائع وما طريقه السمع. كقوله: ما كنت تدري ما الكتاب! وقيل: ضل في صباه في بعض شعاب مكة فرده أبو جهل إلى عبد المطلب. وقيل: أضلته حليلة عند باب مكة، حين فطمته وجاءت به لترده على عبد المطلب. وقيل: ضل في طريق الشام حين خرج به أبو طالب. فهذا كفرع القرآن والشرائع، أو أزال ضلالك عن جدي وعمك. ومن قال: كان على أمر قومه أربعين سنة، فإن أراد أنه كان على خلوه من العلوم السمعية فنعم، وإن أراد أنه كان على دينهم وكفرهم فمعاذ الله، والأنبياء يجب أن يكونوا معصومين قبل النبوة وبعدها من الكبائر والصغائر الشائبة فما بال الكفر والجهل

= الكلام في الصلاة (الحديث رقم: 33 - 537).

(1) رواه الحاكم في المستدرک 2/605.

(4) نكره الثعلبي وابن مروييه والواحد في تفاسيرهم، الزيلعي /4

(2) رواه البخاري تعليقاً في الكتاب: الجهاد والسير، باب: ما قيل في